لجنة بحوث القرآن

مشيخة الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم
وقف المستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى
بالإشتراك مع بنك فيصل الإسلامى المصرى

محاضرات شهر رمضان المبارك
سنة ١٤٢٥هـ / أكتوبر ٢٠٠٤م
بقاعة الشيخ الإمام/ محمد عبده
بجامعة الأزهر

وقف المستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى بالإشتراك مع بنك فيصل الإسلامى المصرى

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢٨١١

٥١٠٨٣٧٩

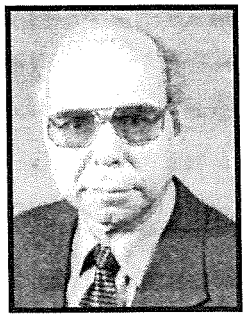

الإعجاز الاقتصادى فى السنة النبوية الشريفة[1]

أ.د / شوقى أحمد دنيا

عميد كلية تجاره تفاهنا الاشراف بجامعة الإزهر

مقدمة :

تلقيت بكل شرف ، وسعادة دعوة كريمة من لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، وذلك للمشاركة فى موسمها الثقافى خلال شهر رمضان المبارك ، بورقة علمية حول (الإعجاز الاقتصادى فى السنة النبوية الشريفة) .

وقد رأينا أن تتضمن هذه الورقة ثلاث قضايا ، ثنتان منها بمثابة التمهيد الذى يُعَّد بلغة القانون جزءاً لا يتجزأ من الموضوع ، وهى :

- أهمية السنة فى الإسلام .
- الإعجاز العلمى فى السنة النبوية .
- السنة النبوية والاقتصاد .

أهمية السنة فى الإسلام :

لماذا كان التعريج على هذه القضية ؟

١ ـ القت هذه المحاضره مساء الإربعاء ٢٧ رمضان ١٤٢٥ هـ الموافق ٣ نوفمبر سنة ٢٠٠٤ بقاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر بالدراسة القاهرة .

لصلتها الوثيقة بموضوع الورقة ، ومن حيث كونها تكشف عن مدى أهمية هذا الموضوع ، إضافة إلى ما تتعرض له السنة النبوية الشريفة من لمز وطعن من بعض من يحسبون على المسلمين ، وما هم منهم فى شىء ، ولن نطيل الوقوف أمام هذه القضية ، وإنما هى مجرد كلمات موجزة مركزة ، نأمل أن تكون قوية التأثير ، وأن تزيل الغمّة عمن ليس له بها علم ، وأن تشفى القلوب المرضى .

١ ـ ما الذى نزل من السماء من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؟

الذى نزل هو القرآن والسنة معًا ، القرآن الكريم نزل بلفظه ومضمونه ، والسنة النبوية نزلت بمضمونها ، وهذا يتعارض مع ما هو شائع من أن الذى نزل من عند الله هو القرآن الكريم فقط ، أما السنة فهى صناعة نبوية ، وهذا القول الشائع يعبر عن فهم مخطىء فى جانب السنة ، فالسنة النبوية : هى الأخرى منزلة من عند الله ، وما للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيها إلا مجرد اللفظ أو الصياغة والعبارة أما المعنى والمضمون فهو منزل من السماء شأنه شأن القرآن الكريم كلا هما وحىٌ ، لكن القرآ يتعبد بتلاوتة أما السنة فلا.

وهذه هى الأدلة والمؤصلات ، نذكرها محررة من التطويل والإسهاب .

الرسول الكريم مهمته البلاغ : قال ـ تعالى ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ { سورة المائدة : ٦٧ } ، إذن هناك رسالة إلهية نازلة من عند الله ـ تعالى ـ وعلى الرسول الكريم تبليغها .

فما الذى أنزل إلى الرسول الكريم ؟ الذى أنزل إلى الرسول الكريم هو القرآن وبيانه ، ومعنى ذلك أن المنزل من السماء من عند الله أمران ، وليس أمرًا واحدًا : المتن والشرح ، إن جاز التعبير ، مع فارق السمو اللامتناهى ، ولله المثل

الأعلى ، أما المتن أو القانون : فهو القرآن الكريم ، وأما الشرح أو اللائحة : فهو السنة النبوية الشريفة . لنستمع إلى القرآن الكريم يحدثنا عن أن بيان القرآن والذى هو السنة منزل من عند الله شأنه شأن القرآن الكريم . قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [سورة النجم ٣ ـ ٥] .

ومما ذكره المفسرون فى هذه الآية أن كل ما ينطق به الرسول ـ ﷺ ـ فى الشئون الدينية هو وحى من عند الله لا فرق فى ذلك بين قرآن وسنة [1] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[2] [سورة القيامة ١٦ ـ ١٩] تدبر قوله ـ تعالى ـ : ثم إن علينا بيانه ، إذن بيان القرآن ، والذى هو بنص القرآن الكريم ، كما سيأتى فى آية كريمة ـ السنة النبوية حسب التعبير الشائع ـ هو منزل من عند الله ـ تعالى ـ ، كما أن جمع القرآن وقراءته من عند الله ـ تعالى ـ وقال ـ تعالى : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٤] فالرسول الكريم مأمور بتبليغ ما أنزل إليه من عند الله ، والذى أنزل إليه من عند الله هو الذكر ، ومطلوب من الرسول الكريم أن يبين للناس ما نزل إليهم ، وهذا البيان مصدره وأصله من عند الله ـ تعالى ـ . هل بلغ الرسول القرآن ؟ نعم . وهل بلغ بيان القرآن ؟ نعم . ولا يكفى أن يبلغ القرآن دون بيانه ، إذ يكون عندئذ ـ معاذ الله ـ ،

(١) انظر القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، بيروت : دار إحياء التراث العربى ، جـ ١٧ ، ص ٨٤ ، الرازى ، التفسير الكبير ، مكتبة المعارف ، الرياض : ص ٢٨ ، ص ٣٨٢ وما بعدها ، الألوسى : روح المعانى ، دار الفكر ، بيروت : جـ ١٤ ، ٤٦ .

(٢) قال الألوسى : « ورد أن معناه ثم إن علينا أن نبينه بلسانك » ، جـ ١٥ ، ص ١٧٩ .

ما بلغ ما أنزل إليه ، والذى بلَّغ القرآن الكريم هو بنفسه الذى عليه تبليغ بيانه ، كما نصت الآية الكريمة (لتبين للناس ما نزل إليهم) يضاف إلى ذلك أن السنة النبوية جرى تعبير القرآن عنها بالحكمة ، وقد نصت وصرحت آيات عديدة بأن الحكمة منزلة من عند الله ـ تعالى ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ من شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١١٣] ، وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء : ٣٩] وقال ـ تعالى ـ ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣١] وقال ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا من قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة : ٢] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥١] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٤] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء : ٣٩] .

وهكذا يؤكد القرآن الكريم على أن السنة النبوية هى من عند الله ، مثل القرآن ، والمغايرة الوحيدة بينهما أن القرآن منزل بلفظه ومعناه ، أما السنة فهى منزلة بمعناها ، متروك للرسول ـ ﷺ ـ اللفظ والصياغة .

وقد بين الرسول ـ ﷺ ـ هذه الحقيقة فى رده الصريح على من يفرق بين القرآن والسنة من هذه الناحية ، بزعم أن القرآن هو الذى من عند الله ، أما السنة فهى من عند الرسول ـ ﷺ ـ قائلاً : « ... ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه » (أبو داود عن المقدام بن معد يكرب) .

تأمل قوله ـ ﷺ ـ « أوتيت » وتعلقها بالقرآن وأيضًا بمثل القرآن تجد صدق ما نقول ، وفى ذلك يقول الخطابى : « قوله أوتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما : أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ما أعطى من الظاهر المتلو ، والثانى : أن معناه أنه أوتى الكتاب وحيًا يتلى وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن [1] .

نخلص من ذلك كله إلى أن السنة هى ضرورية فى الإسلام وللإسلام كالقرآن تمامًا بتمام ، لا لشىء إلا لأنها فى الأساس بيانه ، والشىء بدون بيانه جزاه عزوجل قليل الغناء ؛ بل إن بعض العلماء بالغ فى ذلك فقال : « القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن ... السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنة [2] وعندما طلب من الإمام أحمد بيان رأيه فى هذه المقولات قال : « ما أجسر على هذا أن أقوله ، ولكنى أقول : إن السنة تفسر القرآن وتبينه [3] .

(١) القرطبى ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ٣٨ .

(٢) القرطبى ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ٣٩ .

(٣) القرطبى ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ٣٩ .

وبيان القرآن الكريم وتبيين الذكر من قبل الرسول ليس المقصود به تفسير القرآن بالمعنى الفنى المعروف ، فالثابت أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يفسر القرآن كله ، ومع ذلك فلا يمكن القول : إن الرسول ترك شيئًا من الإسلام دون تبين وبيان .

الإعجاز فى السنة النبوية :

جرى العرف وسرت العادة أن ينسب الإعجاز إلى القرآن الكريم ، ونادرًا ما ينسب إلى السنة ، مع أن الأمر فيهما عند التدقيق واحد ، فكون القرآن معجزًا يستدعى ، بل يستلزم أن تكون السنة النبوية كذلك ، بما أنها بيان وتبيين للقرآن الكريم .

ويتأكد ذلك إذا ما آمنا بأن المعجزة القرآنية الكبرى تتمثل فى هدايته ،[1] حيث إن السنة النبوية هى التى تعرفنا على هداية القرآن .

وعندما يقول ـ ﷺ ـ : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها » فمعنى ذلك أن الرسول الكريم قد بين لنا الإسلام بيانًا لا يجاريه ولا يدانيه بيان، فلا يمكن لأى أحد من البشر أن يقدم بيانًا للقرآن مثل هذا البيان النبوى ، وما ذلك إلا لأن هذا البيان النبوى إن هو فى الحقيقة إلا عمل إلهى ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى تكفل ببيان القرآن الكريم ، وما على الرسول فى ذلك إلا البلاغ .

ويوضح ذلك قوله ـ ﷺ ـ : « أوتيت القرآن ومثله معه » ، وقوله ـ ﷺ ـ : «أويت جوامع الكلم » تجده يصرح بأن ما يقوله من أمور الدين من غير القرآن هو أمر لم يأت به من عنده . وإنما المصدر فى ذلك هو الله ـ تعالى ـ .

(١) راجع فى ذلك الشيخ محمد الصادق عرجون ، القرآن العظيم : هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين ، دار القلم ، دمشق : ١٩٨٩ م .

وهكذا نجد أن المسألة ليست مسألة بشرية حتى ولو كانت بشرية الرسول الكريم ، وإنما هى مسألة إلهية ، وكم كان الرسول الكريم يتوقف قبل أن ينطق بالحديث حتى يأتيه الوحى .

وهكذا نصل إلى الحقيقة التى قد لا يعرفها الكثير من الناس ، مع حقيقتها وهى أن السنة تشارك القرآن الكريم فى الإعجاز .

السنة والاقتصاد :

القرآن الكريم دستور كامل شامل للحياة بكل مجالاتها ومناحيها ، بما فيها المجال الاقتصادى ، هذه حقيقة مسلم بها لدى كل المسلمين ، أو هى ما يقال عنها إسلاميًا « معلوم من الدين بالضرورة » ويترتب على ذلك لزومًا أن يكون هناك بيان لما فى الإسلام والقرآن الكريم من هداية فى المجال الاقتصادى ، أو بعبارة مرادفة : أن تكون هناك سنة نبوية شريفة فى هذا المجال ، تبين مراد الله ـ تعالى ـ فيه ، تارة بالقول ، وتارة بالفعل ، وتارة بالموافقة والتقرير .

وطالما أن هذا المجال الاقتصادى داخل فى دائرة الاهتمام الإسلامى ، فعلينا أن نؤمن لزومًا ، حتى وإن لم ندرك ذلك علميًا أن البيان الاقتصادى فى السنة هو بيان شامل محيط ، لم يترك نقطة إلا وقد أحاط بها وجلاَّها ، وإلا ما صدق ـ والعياذ بالله ـ قول الرسول الكريم ـ ﷺ ـ : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها » ولا قوله ـ ﷺ ـ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا ؛ كتاب الله وسنتى » .

كما أنه بيان بلغ فى كماله وحسنه وجودته مستوى لا يجاريه فيه ولا يدانيه أى بيان آخر ، فهو بنص الحديث الشريف « خير الهدى » .

وبالطبع فإن هذه الورقة لن تستطيع ، ولا يطلب منها أن تغطى كل جوانب البيان النبوى الاقتصادى ويكفيها أن تشير إلى الأصول والكليات وأن تقدم نماذج .

إن النشاط الاقتصادى ، كما هو عند الاقتصاديين : يتجمع كله بمختلف جوانبه تحت أربعة عناوين رئيسة تشكل محاور وأركان علم الاقتصاد أو النظرية الاقتصادية هى : (الاستهلاك ، الإنتاج ، التبادل ، التوزيع).

وهذه إشارات سريعة عن موقف السنة النبوية الشريفة حيال كل مجال من هذه المجالات .

السنة والإستهلاك :

فى القرآن الكريم من الأوصاف التى وصف بها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه يحل لمن اتبعه الطيبات ويحرم عليهم الخبائث قال ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وإذا كان ذلك يصدق فى كل المجالات الاقتصادية وغيرها ، فإنه يصدق بادىء ذى بدء على الاستهلاك ، فالطيبات من السلع ، والخدمات حلال استهلاكها ، والخبائث منها محرم استهلاكها ، والطيبات يقصد بها الأشياء غير الضارة بالإنسان فى أى مقوم من مقوماته ، كما يصقد بها السلع والخدمات غير الضارة وذات الجودة العالية [١] ، والخبائث ضدها ، فهى تطلق على الأشياء الضارة كما تطلق على الأشياء غير الضارة لكنها رديئة الجودة ، قال

(١) راجع كتب التفاسير فى تفسيرها لهذه الآية الكريمة .

ـ تعالى ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٧] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الطيبات والخبائث ، وجاءت السنة فبينت بجلاء هذه الطيبات والخبائث .

ولا شك أن الاستهلاك يعد ـ كما هو معروف فى الاقتصاد ـ أحد أهم الأنشطة الاقتصادية ، بل إنه ليعد الغاية من النشاط الاقتصادى كله ، وإذا كان الجانب الهدمى هو الجانب الظاهر فى الاستهلاك ، فهو إفناء للموارد والسلع والخدمات ، لكن ذلك لا يعنى أنه هو الجانب الوحيد أو حتى هو الجانب المهم فى النشاط الاستهلاكى ، فهناك الجانب الأهم ، وإن لم يكن ظاهراً بشكل مباشر وهو الجانب البنائى ، والمتمثل أولاً : فى بناء الإنسان بكل طاقاته ومقوماته، وثانيًا : فى إيجاد وتنمية الأموال والموارد ، فبدون استهلاك لن يكون إنتاج ولا تنمية ، وحتى يحقق الاستهلاك مقصده هذا ، عليه أن يحقق عدة معايير ، معيار الكم ، ومعيار الكيف ، ومعيار الغيرية أو الاجتماعية .

المعيار الأول : يتعامل مع الحجم وضرورة أن يكون وسطًا لا إسراف ، ولا تقتير ، ومعيار الكيف : يتعامل مع النوعية ، وضرورة أن يكون المستهلك طيبًا وليس خبيثًا ، أما معيار الغيرية : فيتعامل مع أثر الاستهلاك على غير المستهلك من أفراد المجتمع ، وضرورة ألا يحدث الاستهلاك ضرراً أو حتى أذى بالغير من شتى صنوف الاستهلاك الترفى أو البذخى الاستفزازى .

وبالدراسة والتحليل لهذه المسألة لا نجد هديًا خيراً من الهدى الإسلامى من خلال مصدريه ، القرآن والسنة ، فالقرآن الكريم يقول : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[سورة الأعراف : ٣١] كما يقول فى صفة عباد الله المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٧] .

وايضًا يقول : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [سورة الإسراء ٢٩] والرسول الكريم يقول : « كل ما شئت والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان ؛ سرف ومخيلة » ، كما حذر فى العديد من الأحاديث من إسبال الرداء ، ومن التزيد فى المأكل والسكن ، واستخدام المياه حتى فى العبادات ، ومن التفاخر ، والتكاثر ، والخيلاء. ومن الأحاديث النبوية الشريفة ذات الدلالة البالغة قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ « لا عال من اقتصد » وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعايير أو الضوابط فى المجال الاستهلاكى إنما هى من خصائص الاقتصاد الإسلامى ، فليس للإقتصاد الوضعى دراية ولا علم بها .

السنة والإنتاج:

أهمية الإنتاج فى النشاط الاقتصادى لا تحتاج إلى بيان وتوضيح ، فهو القطب الذى تدور حوله رحى النشاط الاقتصادى ، وبدونه لن يكون هناك شىء من الأنشطة الأخرى .

ويسعى كل نظام اقتصادى جاهداً لأن يوفر البيئة الحافزة والمشجعة للإنتاج ، كما يبذل قصارى جهده لقيام نشاط إنتاجى كفء ، يحقق الاستغلال الأمثل للموارد المادية ، والبشرية ، ولتنمية هذه الموارد ، وبنجاح الاقتصاد فى هذا الشأن يكون قد حقق شطر مقاصد أى نظام اقتصادى والمتمثلة فى كفاءة الإنتاج وعدالة التوزيع .

ما هى المحاور الكبرى والخطوط العريضة للهدى النبوى فى المجال الإنتاجى ؟

بداية يكفى أن ندرك أن المدينة المنورة فى عهد الرسول ـ ﷺ ـ تحولت إلى ما يشبه خلية النحل نشاطًا إنتاجيًا فى كافة المجالات ؛ الزراعية ، والخدمية ، والصناعية ، والتجارية .

كما ظهر الحرص النبوى الكريم البالغ على توظيف كل الموارد والطاقات المتاحة ، وحديث الفقير الذى جاء يشتكى للرسول الكريم العوز والحاجة ، وتوجيه الرسول له بممارسة النشاط الإنتاجى ، ومن ثم قضى على حاجته وفقره من خلال الإنتاج ، وليس من خلال تأمين متطلبات الاستهلاك حديث مشهور معروف ، وهناك الأحاديث العديدة التى تنفر أشد التنفير من العيلولة على الناس ومسألتهم ، والتوجيه بممارسة النشاط الإنتاجى والتجارى بدلاً من ذلك.

وقد حلَّ الرسول ـ ﷺ ـ مشكلة العوز والفقر العامة فى المدينة فى بداية العهد بها والتى نشأت من جراء هجرة المهاجرين إليها دون أى مال لهم ، من مدخل الإنتاج ، حيث تحول هؤلاء المهاجرون إلى منتجين فى المجال الزراعى ، والمجال التجارى ، وغير ذلك . وسوف نوضح ذلك فى محور التوزيع ، لقد تحول المهاجرون إلى مشاركين فى العمليات الإنتاجية الزراعية من خلال عملهم على أراضى ، ومزارع ، وحدائق الأنصار .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما ظهر فى المدينة المنورة لأول مرة ما يعرف بالإقطاع وأيضًا إحياء الموات ، حيث قام الرسول ـ ﷺ ـ بإقطاع كل من يستطيع الزراعة من المهاجرين والأنصار أراضى زراعية بقدر ما يستطيع ، كما صرَّح ـ عليه السلام ـ للجميع بإحياء الأراضى الميتة وتحويلها من أرض غير منتجة إلى أرض حية منتجة ، مقدمًا فى ذلك أقوى حوافز للمسلم على ممارسة النشاط الإنتاجى ، وهى حوافز اقتصادية ودينية معًا ، فمن أحيا أرضًا ميتة فهى له ، وله فيها أجر ، وهل هناك أقوى من حافز الملكية والتملك للأرض

مجانًا وبغير عبء من قبل الدولة لمن يعمرها ويحييها ؟ وهل هناك حافز يحرص المسلم عليه أقوى من الأجر والثواب لمن يعمر الأرض ويحيلها من خراب وبوار إلى عمران وتوظيف وإنتاج ؟ فما بالنا إذا اجتمع التملك والأجر؟ وهل هناك أبلغ فى التحريض على ممارسة النشاط الإنتاجى الزراعى من قوله ـ ﷺ ـ : «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها فإنه له فيها أجر » . إن النبى ـ ﷺ ـ بتشريع الإقطاع وتشريع إحياء الموات قضى على جانب كبير من بطالة العنصر البشرى ، وأيضًا من عدم توظيف الموارد المادية ، فالفرد المسلم فى المدينة ـ وخاصة المهاجر ـ الذى ترك ماله خلف ظهره وهاجر فتحت أمامه فرص عديدة للعمالة وذلك من خلال الإقطاع ، وإحياء الموات ، والمشاركة بالعمل فى أراضى ، وحقول ، ومزارع الأنصار ، وظهرت تشريعات الإجارة ، والمزارعة ، والمساقاة ، فإذا ما انضم إلى ذلك التنفير الشديد من سؤال الناس ومد اليد إليهم والعيلولة عليهم، فإن المرء ليدرك كيف تحول المسلم إلى طاقة إنتاجية . وحرصًا من الرسول ـ ﷺ ـ على تحقيق التشغيل الأمثل لهذه الموارد والطاقات لم يرفض الاستعانة بالخبرات ورؤوس الأموال الأجنبية ، كما ظهر ذلك جليًا فى معاملة اليهود على أرض خيبر[1] .

ومن المعروف أن حماية الحقوق المالية والملكيات تعد توفرها مطلبًا ضروريًا لقيام المزيد من العمليات الإنتاجية والاستثمارية ، وقد وعت السنة النبوية ذلك ، بل فى الحقيقة أصَّلت لنا وللاقتصاديين جميعًا على مختلف العصور اللاحقة تلك الحقيقة .

---

(١) لمزيد من المعرفة يراجع د . شوقى دينا ، الإسلام والتنمية الإقتصادية ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٧٩ ص .

فقدمت كل التشريعات اللازمة والكفيلة بتحقيق هذا المطلب ، والأحاديث فى ذلك أكثر من أن تحصى محذرة أبلغ التحذير من الاعتداء على حقوق الغير وممتلكاته : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس » « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » « من ظلم شبرًا من أرض طوقه الله يوم القيامة من سبع أراضين » .

وحرصً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كأبلغ ما يكون التحريض على حماية الإنسان لماله ، ودفاعه عنه ذاهبًا إلى أن من يقتل فى سبيل ذلك يعد شهيدًا « من قتل دون ماله فهو شهيد » جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : فلا تعطه مالك ، قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : قاتله ، قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد ، قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال : هو فى النار » .

وأسس البيئة القانونية السليمة التى بها يحفظ لكل إنسان ماله وحقوقه عند التنازع وعند طروء أية ظروف اقتصادية أو طبيعية قاهرة ، ويتجلى هنا تشريع الجوائح.

ومما يثير الانتباه أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يقف فى هذا الاهتمام البالغ بالنشاط الإنتاجى عند حد الزراعة بل ولا التجارة ، وإنما تعدى ذلك إلى قطاع الصناعة والخدمات فحث وحرَّض على ولوج هذا القطاع من خلال العديد من التشريعات « ما أكل أحد طعامًا قط خير من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

وإذا كان الإسلام من خلال كل من القرآن الكريم والسنة النبوية قد قدم أقوى الحمايات للأموال ، والملكيات الخاصة وصانها من أى اعتداء عليها ، ولو كان من قبل الدولة نفسها فإن السنة الكريمة قد أسست قواعد ومنطلقات للملكيات العامة على الموارد الطبيعية الضرورية للجميع ، والتى يحتاج إليها

الناس جميعًا مثل المياه ، والمعادن ، والغابات قال ـ ﷺ ـ : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » كما أسست الحمى الإسلامى لأغراض التوازن الاجتماعى والاقتصادى ، وتوفير مرافق عامة لبعض القطاعات المهمة مثل القطاع العسكرى ، وبذلك تأسس نظام الملكية فى الإسلام مرتكزًا على الملكية المزدوجة : الخاصة والعامة .

السنة والتبادل:

لا يقل التبادل أهمية فى المجال الاقتصادى عن غيره من الأنشطة الاقتصادية من استهلاك وإنتاج وتوزيع ، وهذا أمر معروف اقتصاديًا لا يحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح لأنه يجسد باختصار الحقيقة الإنسانية المعروفة باجتماعية الإنسان واحتياجاته المتبادلة ، وعدم قدرة أى فرد على الاكتفاء بنفسه فى سد احتياجاته ، يضاف إلى ذلك اختلاف الأفراد فى الميول والقدرات ، وبالتالى وجود الفائض والعجز معًا لدى العديد من الأفراد .

وعادة ما يكون فائض هذا هو عجز ذاك ، وبالتالى أصبح من الضرورى قيام نشاط التبادل فى المجال الاقتصادى ، بل وأصبح ضروريًا وجود الأسواق ، ووجود الأسعار ، ووجود النقود ، والأهم من ذلك وجود فئة متخصصة تتخذ من التبادل مهنة وحرفة يعرفون بالتجار ، وبالتالى أصبح من أهم صور التبادل التجارة ، أو التبادل التجارى ، ومن الواضح الجلى أنه لا يستغنى المستهلك عن التاجر ، كما لا يستغنى المنتج عن التاجر ، فالتاجر يعد همزة وصل ضرورية بين المستهلك والتاجر ، أو هو المعبر أو القنطرة التى تعبر عليها المنتجات من المنتج إلى المستهلك .

وبقدر نجاح أى نظام اقتصادى فى توفير وتأمين نظام تبادلى أو نظام تجارى كفء بقدر ما يتوفر لكفاءة وعدالة هذا النظام من متطلب ضرورى .

فماذا عن الهدى النبوى فى هذا المجال ؟

إن النشاط التبادلى بوجه عام والنشاط التجارى بوجه خاص يحتاج إلى نظام تجارى جيد له تشريعاته وله موسساته وله آلياته .

فهو يحتاج إلى جهاز تسعير كفء ، وقد أثبتت التجارب العديدة أن الجهاز السعرى الكفء هو ما يرتكز على السوق والدولة معًا ، السوق يعمل والدولة تتابع وتراقب وتقدم من السياسات والإجراءات والتشريعات ما يجعل السوق يقوم بمهمته بكفاءة ، وأثبتت التجارب أيضًا أن سوقًا بغير دولة لا يحقق المقصود من التبادل على الوجه المقبول ، وأن دولة بغير سوق ينطبق عليها ذلك تمامًا بتمام .

لقد بلغت عناية السنة النبوية الشريفة بالتبادل والتجارة مبلغًا جعلت الرسول ـ ﷺ ـ يعنى بالسوق وأمره عنايته بالمسجد وشأنه فكان أول ما أقامه فى المدينة من مؤسسات موسسة المسجد ومؤسسة السوق ، ودلالة ومضمون قيام الرسول والإمام الأكبر بنفسه بتأسيس السوق ، مكانًا وتنظيمًا وإشرافًا ومراقبة فى المجال الاقتصادى ينبغى أن تأخذ حقها من النظر والاهتمام [1] .

وقد وضع للسوق من التشريعات وأقام لها من القواعد والمرتكزات ما يجعلها سوقًا حرة تمارس دورها فى التسعير بكفاءة ، فلا احتكار ، ولا غش ، ولا تدليس ، ولا تمييز ، ولا كتمان وإخفاء وتجهيل ، ولا صورية فى الممارسات ولا كذب فى البيانات ولا إخفاء للعيوب ، ولا غير ذلك من كل ما يشوه على

(١) لمزيد من المعرفة يراجع د. شوقى دنيا ، الأخلاق الإسلامية فى مجال التجارة والأسواق ، من أعمال ندوة (القيم الأخلاقية الإسلامية والإقتصاد) مركز صالح كامل للإقتصاد الإسلامى ، جامعة الأزهر ، ابريل ٢٠٠٠ م .

جهاز السوق فى توصيل المعلومة الجيدة للمتعاملين ، ومن ثم تقدير القيم الحقيقية لما يطرح فيه من سلع وخدمات ، وإضافة إلى ما هناك من تشريعات وأحكام نجد الترغيب الدينى وكذلك الترهيب الدينى بالغى القوة والأثر فى الحفز على السلوك السليم ، والابتعاد عن السلوك المختل الضار ، فالتجار من وجه مع الصديقين ، ومن وجه آخر هم فساق ، والأسواق من شرار الأماكن وفى الوقت ذاته شأنها شأن المساجد من سبق إلى مكان فيها فهو أحق به ، إنها موطن للعبادة الحقة كما أنها موطن للشرور والآثام ، والسماحة فيها مطلوبة كما أن الكياسة فيها أيضًا مطلوبة ، وطالما أن جهاز السوق بعيد عن التشويش والتلاعب فقوانينه محترمة مصانة لا ينتقص منها حتى ولو من قبل الدولة ، ولا أدل على ذلك من رفض الرسول ـ ﷺ ـ للتسعير الإدارى عندما طلب منه ذلك [1] . والأحاديث فى السوق ، والأسعار ، والممارسات التبادلية ، والتجارة أكثر من أن تحصى ، وكلها تصب فى بؤرة تشييد جهاز سعرى كفء .

السنة وعدالة التوزيع :

يعد التوزيع رابع أربعة محاور تدور حولها الدراسات الاقتصادية ، وكما أن الثلاثة الأخرى تؤثر فى التوزيع فإن التوزيع بدوره يؤثر فيها ، ومن ثم لا يستغنى أى منها عن الآخر .

وقد بلغ التوزيع درجة ومكانة وأهمية فى علم الاقتصاد إلى الحد الذى جعل عدالة التوزيع أحد معيارين تحاكم من خلالهما الأنظمة الاقتصادية، أو بعبارة أخرى أحد مقصدين يتغياهما كل اقتصاد وهما كفاءة الإنتاج

(١) د . عبد الرحمن يسرى ، تنظيم الحياة الإقتصادية للمدينة المنورة فى عصر الرسالة ، مركز صالح كامل ، المؤتمر الدولى حول (التاريخ الإقتصادى للمسلمين) أبريل ١٩٩٨م .

والتخصيص ، وعدالة التوزيع ، ومهما كان الاقتصاد كفئًا فى الإنتاج والتبادل فإنه يعد عاجزًا ، بل وفاشلاً إذا لم يحقق عدالة التوزيع .

ما الذى قدمه الهدى النبوى فى هذا المجال ؟

قدمت السنة النبوية الشريفة فى هذا الصدد هديًا فريداً لم يسبق ولم يلحق ، وهو المؤاخاة ، فمن المعروف أن المجتمع المدنى الإسلامى تكون من جناحين : الأنصار أهل المدينة وأصحاب الديار ، والأموال ، والأراضى ، والمهاجرين الذين وفدوا على المدينة من مكة وغيرها مخلفين وراءهم أراضيهم وديارهم وأموالهم ، والدلالة الاقتصادية لهذا الواقع وجود تفاوت حاد فى التوزيع يصل إلى حوالى ٥٠ ٪ من عدد السكان يقعون فى نطاق ما يعرف بالفقر المدقع ، والذى يصل فى حالات عديدة إلى حد العوز والعدم ، هذا الوضع الاقتصادى البالغ السوء يتطلب علاجًا غير عادى .

وجاء الهدى النبوى بعلاج ناجح من مدخل ومنطلق إيمانى حتى يحدث أبلغ الأثر فى علاج هذا الوضع ، وقد تمثل فيما عرف فى السيرة والتاريخ الإسلامى بالمؤاخاة ، حيث آخى رسول الله ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار ، كل أنصارى أتخذ أخًا له من المهاجرين ، وليس هناك أقوى وأبلغ من علاقة الأخوة ، والأخ ، ولا سيما الأخ المسلم المؤمن لا يدع أخاه يشتكى من شىء دون أن يشاركه فى الضراء والسراء ، ووصل الحال إلى أن أصبحا يتوارثان ، وظل الحال على ذلك ردحًا من الزمن إلى أن تطورت الأوضاع وتحسنت أحوال المهاجرين .

وقد بلغ الإيثار مداه لدى الأنصار وبلغت العفة مداها لدى المهاجرين ، وكل ذلك مسطر بسطور من نور فى التاريخ البشرى ، وقد عرض الأنصار على الرسول الكريم أن يقسم أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين ، لكن

الرسول رفض هذا العرض الكريم السخى ، كما أمتنع من فرض فريضة مالية «ضريبة » عليهم ثم عرض الأنصار أن تجرى مشاركة بينهم وبين المهاجرين فى الثمر ، والمزروعات مقابل أن يقدم المهاجرون ما يستطيعون من عمل فى هذه الأراضى والحدائق ، وقد قبل الرسول الكريم هذا العرض منهم ، وقد حقق هذا الأسلوب العديد من المزايا والفوائد ، فحسن كثيراً الوضع التوزيعى فى المدينة ، والمستوى الاقتصادى للمهاجرين ، كما حقق لهم المعرفة والتمرس فى ممارسة نشاط الإنتاج الزراعى ، والذى لم يكن للكثير منهم عهد به ، لأن مكة ليست بلد زرع ، فأصبحوا زراعًا مع كونهم فى الأصل تجارًا ، إضافة إلى ما فى ذلك من المزيد من تشغيل الموارد المادية .

ولم يقف الهدى النبوى عند هذا الحد فى مواجهة قضية التوزيع ، فقام بإقطاع المهاجرين أراضى زراعية بقدر ما يستطيع كل واحد ، وبهذا وبذاك تحسن الوضع الاقتصادى للمهاجرين من مدخل إنتاجى ، ولا شك أن منهج جعل الفقير غنيًا من خلال تحويله من عاطل إلى شخص منتج ، أو بعبارة أخرى تحقيق العدالة من خلال الإنتاج والتنمية هو أفضل المناهج لعلاج مشكلة الفقر وسوء التوزيع ، وقد تدعم ذلك كله بما أفاء الله ـ تعالى ـ على الرسول وعلى المسلمين من أموال المشركين واليهود ، حيث قام الرسول الكريم بتخصيصه كله للمهاجرين واثنين من فقراء الأنصار ، وعند ذلك أصبح الأنصار فى حل من التزاماتهم حيال المهاجرين .

فإذا ما اضفنا إلى ذلك كله فريضة الزكاة وأيضًا شعيرة الوقف ، ثم الحرص الكامل على أن ينال الأجراء حقوقهم الأجرية كاملة فإن منظومة التوزيع العادل تكون قد استكملت أركانها ، ولا ننسى هنا عنصراً فاعلاً فى المنظومة التوزيعية ، يحدث وجوده فيها أبلغ الآثار الضارة والتى تلحق بعدالة التوزيع أفدح المضار وهو الربا .

وقد وجدنا السنة النبوية الشريفة تقدم هديها المتكامل الشامل حيال تحريم الربا والترهيب الشديد من ممارسته وإبطال ما كان قائمًا منه ، وقد بلغ اهتمام السنة به أن جعلت منه أحد التوجيهات الكبرى فى حجة الوداع .

من جوامع الكلم النبوى فى المجال الاقتصادى :

قال ـ ﷺ ـ : « لا عال من اقتصد » ، إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها فإن له فى ذلك أجرًا » ، « رحم الله أمرءًا اكتسب طيبًا ، وأنفق قصدًا ، وقدم فضلاً ليوم حاجته وخلته » .

« من قتل دون ماله فهو شهيد » « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » ، «الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والنار والكلأ » ، « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ، « نعم المال الصالح فى يد الرجل الصالح » ، « الدنيا خضرة حلوة من أخذها بحقها بورك له فيها ، ومن أخذها بغير حقها كان كمن يأكل ثم لا يشبع »، « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، « من أحيا أرضًا ميتة فهى له » .

السنة والنظام الاقتصادى :

كما قدمت السنة النبوية الشريفة هديها حيال النشاط الاقتصادى بمجالاته المتعددة قدمت هديها حيال النظام الاقتصادى الذى ترتضيه .

وبتجميع الأقوال والأفعال والتقريرات حيال مختلف المواقف والأنشطة الاقتصادية واستخراج دلالاتها ومضامينها الاقتصادية يمكن التعرف على أهم ملامح النظام الاقتصادى النبوى ، ومنها :

١ـ هو نظام يؤمن بالحرية الاقتصادية ، ويؤمن فى الوقت ذاته بدور قوى للدولة فى المجال الاقتصادى ، القطاع الخاص يمارس الأنشطة الاقتصادية والدولة تعين وتدعم وتقوم وتوجه ، لم تمارس الدولة الزراعة ولا التجارة ، وتركت ذلك للأفراد فى ظل التوجيه والمراقبة والدعم من قبلها ، فأقطعت

الأراضى وخطت الأسواق ، وتركت للسوق تعمل من خلال آلياتها ، لكن ذلك كله تحت بصر ورعاية الدولة ، ورفضت العديد من الممارسات السوقية الضارة ، ومعنى ذلك وجود نظام اقتصادى يقوم على ركيزتى القطاع الخاص والدولة ، ودون عدوان من إحداهما على الأخرى ، وقد أثبتت التجارب وبرهنت الأفكار على أن هذا النهج هو الأفضل والأحسن والأكفأ .

٢ـ هو نظام يهتم تمام الاهتمام بقضية الإنتاج ، ويهتم بنفس الدرجة بقضية التوزيع ، دون أن يطغى جانب على آخر ، والمعروف أن الاقتصاد الوضعى المعاصر قد تعثر بل وأخفق فى تحقيق التوازن الجيد بين الإنتاج والتوزيع ، وإعطاء كل منهما حقه غير منقوص ودون إفراط ولا تفريط .

٣ـ هو نظام مع صرامته الاقتصادية مصبوغ ومطبوع بالبعد الاجتماعى ، والحق أن استشعار القطاع الخاص بهذا البعد فى هذا العصر قد بلغ من القوة مداه ، ناهيك عن استشعار الدولة بمسئوليتها الاجتماعية .

٤ـ هو نظام يقوم على القيم والأخلاق وينطلق من منطلقات إيمانية ، وقد قدمت هذه القيم للوضع الاقتصادى خدمات حافزة قوية ، ويكفى هنا أن نشير إلى نماذج أبى الدرداء هذا الصحابى الجليل الشيخ الكبير الفانى ، والذى يمارس غرس أشجار الفاكهة ، فقيل له : ما هذا يا أبا الدرداء ؟ وأنت تعلم أن هذه الشجرة لا تثمر إلا بعد أمد بعيد ـ كأنهم يقولون له لن تبقى حيًا حتى تأكل منها ـ فقال لهم : ما علىَّ أن أغرسها فيأكل منها غيرى وأنال أنا الأجر .

وبعد : هذا غيض من فيض من الهدى النبوى فى المجال الاقتصادى ، وهو بكل موضوعية ، يعد أفضل هدى فى المجال الاقتصادى ، وبهذا يصدق أن خير الهدى هدى محمد ـ ﷺ ـ .

والله أعلم .

من هو الإنسان[1]

أ.د احمد شوقى إبراهيم

زميل كلية الأطباء الملكية بلندن

رئيس مجلس إدارة المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة

عضو المجلس الإعلى للشئون الإسلامية

عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)

رئيس مؤسسة الدكتور أحمد شوقى أبراهيم للإعجاز العلمى

من هو الإنسان ؟

الإنسان أكرم خلق الله إلى الله ... كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ { الإسراء : ٧٠ } كانوا يعرّفونه قديمًا بأنه « مخلوق ناطق » ولما اكتشف العلماء أن كل المخلوقات تنطق ، وأن كل نوع من المخلوقات له لغة ونطق ، عدلوا عن التعريف الأول ، وعرفوا الإنسان بأنه:المخلوق العاقل . ذلك لأنه هو المخلوق الوحيد الذى منحه الله ـ تعالى ـ طاقة العقل ، ولم يمنحها لغيره من المخلوقات،كما أنه المخلوق الحى الوحيد الذى نفخ فيه من روحه .

قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ { الأحزاب : ٧٢ } .

والأمانة هى : أمانة العقل ، وأمانة التكليف ، فالإنسان هو المخلوق الحى

١ ـ القيت هذه المحاضرة مساء يوم الإربعاء ٢٧ رمضان سنة ١٤٢٥ هـ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ٢٠٠٤ بقاعة الإمام محمد عبده بجامعة الإزهر الدراسة القاهرة .

الوحيد المُكلّف بطاعة الله تعالى ورسوله ؛ لذلك أعطاه الله ـ تعالى ـ طاقة العقل، التى بها يفرق بين الخطأ والصواب ، والشر ، والخير .

فالإنسان مخلوق حى عاقل ، أعطاه الله القدرة على التعلّم والترقّى فى العلم ، لذلك يزداد علم الإنسان من عصر إلى عصر . وفى عصر العلم الحالى توصل إلى اختراع الميكروسكوب العلمى ، والتلسكوب الفلكى ، وبهما حدثت طفرات كبيرة فى العلم ، وتقدم خطوات واسعة فى كل ميادين العلوم ، وظهر علماء فى كل فرع من فروع العلم ، يستطيعون أن يجيبوا عن كل سؤال، إلا أنهم جميعًا يعجزون عن الإجابة عن سؤال واحد ؛ لأنهم لا يعرفون الإجابة عنه ، ومن العجيب أنه سؤال عن أقرب شىء إلى الإنسان ، إنه نفس الإنسان .

وقال العالم الطبيعى ينلزبور فى هذا الموضوع : « إن الناس إما ممثلون وإما متفرجون فى مسرحية وجودهم فى الحياة الدنيا ، فالإنسان نفسه هو أكبر أعجوبة فى الحياة ، فالإنسان لا يعرف كنه نفسه ، ولا يعلم إلا القليل من أسرار الحياة الدنيا التى تحيط به ، وله قدرة محدودة فى التفكير والتعليل والتخيل ، وهو جزء لا يتجزأ عن الحياة التى يسعى إلى معرفة حقيقتها ، وقد يعلم بعض العلم بأسرار خلق جسمه ، ولكن أين عقله وروحه ؟ وما كنههما ؟ ... إنه لا يعلم عنهما شيئًا » .

لذلك لا يستطيع أحد من علماء العلم التجريبى أن يجيب عن السؤال : من هو الإنسان ؟

حاول العلماء منذ عشرات القرون الماضية أن يجيبوا عن هذا السؤال ... حتى ظهر الدكتور ألكسيس كاريل المتوفى سنة ١٩٤٤ ، وكان جراحًا فرنسيًا ، وقام بدراسة مستفيضة عن ماهية الإنسان فعجز عن الفهم ، كما عجز غيره من العلماء ، فألف كتابًا عنوانه : « الإنسان ... ذلك المجهول » قال فيه : « الإنسان